لم يكن حظّ علماء الهند وباكستان في الأدب العربي الإسلامي قليلاً، كل ما في الأمر أنه أخذ طابعاً علمياً، أكثر منه فنّياً أو جمالياً، الأمر الذي جعله بمبعد من الاعتداد لدى الأدباء والناقدين.. كغيره من الأدب المكنوز في بطون كتب الفقه والحديث والسيرة، والمخبوء في أضابير التاريخ[1].

من الشعر الإسلامي عند علماء الهند في القرن العشرين

قصيدة «الحنين إلى الحجاز» للعثماني نموذجاً

عبد الوهاب الدويري[*] - باكستان

وبصرف النظر عن ذلك فإنهم لم يفتهم التعريج على ذلك الصنف الأول؛ أي الأدب الفني، سواء في الشعر أم في النثر؛ ولنتبين ذلك، يجمل بنا أن نستعرض قصيدة «الحنين إلى الحجاز» للمفتي محمد شفيع العثماني -رحمه الله (ت:١٣٩٦هـ)[2] استعراضاً موجزاً.

وقد يرجّح لنا اختيارها من بين قصائد الشيخ العثماني في مجموعة «نفحات» أنها ترجمان صادق عن مشاعر المحبّة والقداسة، لديه بالذات، ولدى الملايين من المسلمين، في الهند وباكستان، نحو «المدينة المنوّرة»، التي كانت ولازالت -بحق- عاصمة للثقافة الإسلامية[3]، إن شاء الله.

جاءت القصيدة «الحنين إلى الحجاز»[٤] كاسمها مدفوعة بالحبّ العميق للمدينة الطيبة وصاحبها -صلى الله عليه وسلم- ومعضودة بالإيمان الصّادق بهما، ممّا أضفى على محتواها العقدي والروحي والعاطفي الكثير من الحيوية والنشاط، ثمّ إن القصيدة فى الوقت ذاته تعود بنا إلى الأجواء التي عاش الشيخ العثماني في ظلها، بالجامعة الإسلامية بديوبند (أزهر الهند)، لتمثل لنا طرفاً من اتصال هذه الجامعة؛ بالرسول صلى الله عليه وسلم، كيف لا؟ وقد ظلت مرتجّة بأصداء الوحي تلاوة وتفسيرا- ليل نهار، فكان من نتيجته الطبيعية أن تؤثر في تكوين الشيخ العثماني إيمانيا، وحباً للرسول صلى الله عليه وسلم، ولما سكنها من الديار؛ إذ نما في هذه الجامعة ودرج وشبّ وتكوّن.

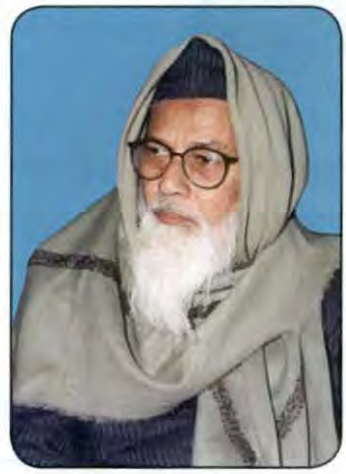

تشتد بالشيخ لوعة الحنين إلى المدينة المنورة، فيمتطي لها ركاب الشعر؛ ليسير به إلى الحجاز، حيث يقضي وطره من حبه الذي غلب عليه، حتى كأنه نبتت له منه أظفار، تنخزه في أحشائه، فكانت من ذلك في قلبه خطوط كخطوط الأنامل، يقول:

لنفسي في أرض الحجاز مآرب
وإني إلى البطحاء سارٍ وساربُ
لقد نبتت في القلب منها مودة
كما نبتت في الأنملات الرواجبُ

وحبّ الشيء يجلب حبّ كل ما له علاقة به وفيه، ومن هنا يتبادل الشيخ العثماني شعوره الودي مع أهل المدينة، يعدو به حبه إلى صحراء أرض الحجاز كلما تراءت له من بعيد، فعل العاشق الذي يفيض جام حبه عند بدوّ آثار الحبيب وأطلال بيته، فيسكب عليها دموعه، كأنما يسقيها، فيقول

فمن عادتي حبّ الحجاز لأهلها
الكرام وأن تُنضى إليها الركائبُ
وأن أسقيَ الأطلال بالدمع كلما
بدت لي من أرض الحجاز السباسبُ

وإذا كان عشاق الدنيا وأهلها يستنفدون طاقتهم الروحية والمادية، وربما يعصرونها إلى آخر قطراتها فيها، ولمن بها؛ فإن العثماني هو الآخر يعتزّ ببذل طاقته في ذكرى المدينة المنورة، وإذا كانوا هم يتيهون في أودية الحبّ المجازي، فإنه يعتاد الوله في طرق مدينة الحبيب صلى الله عليه وسلم، يرمي بنفسه على ذراها فيلقى فيها كل رغباته:

وأن أبذل المجهود في ذكر طيبة
إذا ذكرت للعاشقين الحبائبُ
وأن أرتمي في طرق طيبة والهاً
تتمّ لنفسي في ذراها المراغبُ

وهو بعد ذلك لا يبالي أن يلومه على ذلك لائم، مادام يجد له مساغاً في الشرع والمذهب؛ لأنه يذهب مذهب الرسول صلى الله عليه وسلم، وللناس أن يذهبوا ماشاؤوا من المذاهب:

فتلك وإن لام اللوائم عادتي
وللناس فيما يعشقون مذاهبُ

وبعد أن يعرب عن اتصاله بالمدينة المنوّرة، يفتح صفحة أخرى، عن مناقبها، ويرجع فضلها إلى إمام الأنبياء صلى الله عليه وسلم، الشهاب الثاقب، النبي الأمّي الذي أوتي علم الأولين:

بلاد بها مأوى الفضائل والتقى
شهاب أتى من جانب الله ثاقبُ
وأوتي علم الأولين بأسرهم
يتيماً وما آوته قط مكاتبُ

وإن نور العالم منوط بنوره، فإن سنا وجهه عمّ العالم، واحتوى هديه الكون، وهل اجتمع الهدى والضلال إلا محا أحدهما الآخر!؟ وهكذا شرق خيره وغرّب:

أضاءت بمَحْياه وساطع نوره
مشارقُ أرض الله ثمّ المغاربُ
محمدٌ الماحي الضلالاتِ أحمدٌ
رحيم رؤوف خاتم ثم عاقبُ
إمام جميع الأنبياء عميدُهم
وشمس الضحى، والمرسلون الكواكبُ

وإن الشرف الذي حصل لأنسابه وآل هاشم، إنما حصل لهم منه وبه، فمن الطبيعي أن يتضاءل أمامه سائر الأشراف، ولذلك كانت قريش أفضل القبائل:

وتمّت بمسراه على آل هاشم
مناقب أعيت دونهن مناقبُ

ثم يعقد في النهاية نجاته بصلته بالرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك باتباع هديه، والاقتداء به، وأنه كلما ضاقت عليه مذاهب الأرض من الهم والغم، وجد لدى الرسول صلى الله عليه وسلم الأفق الأرحب، ويذكر موقف الخلق يوم القيامة إذ يلجؤون في النهاية إليه صلى الله عليه وسلم فيشفع الشفاعة العظمى، يقول الشاعر في كل ذلك:

أمامي هول ليس يغني لوقعه
صديق حميم أو قريب مقاربُ
فكن لي شفيعًا يوم لا ذو شفاعة
عليك صلاة الله ما سار ساربُ

ويودّعه محيياً في لوعة حبٍّ، وحرارة حنان، وصدق إيمان، مصلياً عليه مادامت الشمس مشرقة وغاربة:

عليك سلام الله ماذر شارق
بمشرقه أو غاب في الغرب غاربُ

هذا؛ وللشاعر العثماني قصائد وأبيات أجمل من هذه التي سبقت، يقول فيها:

واهاً لطيبة لازالت منوّرة
طابت مشارقها من طيب رياها
من للشفيع بأسحار بها سلفت
وعيشة في حواليها تملاها.

ومثل هذا الديوان بحاجة إلى دراسة مستفيضة، يكشف عن جماليات أساليبه وصوره، وعن مكنونات الشعر العربي في شبه القارة الهندية، البعيدة عن متناول النقاد والدارسين العرب المتخصصين، وهو واجب ينبغي القيام به خدمة للأدب الإسلامي، ولغة القرآن الكريم■

الهوامش:

(*) القسم العربي بجامعة دار العلوم - كراتشي.

(١) انظر: مقدمة المختارات لأبي الحسن الندوي، نظرات في الأدب العربي، ص٢١.

(٢) المفتي الأكبر سابقا، مؤسس جامعة دار العلوم، كراتشي، باكستان.

(٣) انظر مجلة الأدب الإسلامي، العدد ٨٠.

(٤) ديوان نفحات، مكتبة دار العلوم، كراتشي، ص٣٣.